١_ الطريقة السمعية الشفهية

من بين أبرز الطرائق التي اهتمت بميدان تعليم اللغات نجد الطريقة السمعية الشفهية البصرية، وقد سميت كذلك لأنها تجمع بين الاستماع إلى اللغة أولا، ثم إعطاء الرد الشفوي (مع وجود عنصر مرئي أو بدونه بعد ذلك)، وقد أدخل العنصر البصري على التسمية نظرا للاعتماد عادة على وجود عنصر مرئي، مثل الصورة أو الرسم، لمساعدة المتعلم على تكوين صورة واقعية عن معنى الصيغة اللغوية التي يجري تعلمها. لقد كانت الطريقة المباشرة وغيرها من الطرق التي تلتها مجرد إرهاصات ومقدمات لهذه الطريقة، فمنذ قيام الحرب العالمية الثانية وازدياد سبل الاتصال بين دول العالم، وازدياد الاحتكاك بين الشعوب المختلفة، ازدادت وتسارعت الحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية. في ظل هذه الظروف أصبحت الحاجة إلى فهم اللغات والتحدث بها بنطق وطلاقة أقرب ما يكونان من نطق وطلاقة أصحاب تلك اللغات_حاجة ملحة_ تحظى بالأولوية لدى رجال التربية، وعلماء اللغة، وعلماء اللغة النفسيين، فظلا عن المدرسين ورجال الإدارة وصناع القرار.

أصل هذه الطريقة هو الطريقة الشفهية في تعليم اللغة، أو ما يعرف بطريقة تعليم اللغة عن طريق المواقف، وتستند هذه الطريقة إلى نظريّة لغويّة يمكن القول بأنها ضرب من البنيويّة البريطانية، ويرى المذهب البنيوي أن اللغة ما هي إلا منظومة من العناصر المرتبطة بنيويّا للتعبير الرمزي عن المعنى، وتعدّ أن الهدف من تعليم أي لغة هو التمكن من عناصر هذه المنظومة تلك العناصر التي يتم تحديدها في صورة وحدات صوتية مثل: الصوتيمات، ووحدات نحويّة، مثل: التعبيرات والجمل، وعمليات نحويّة مثل: الزيادة، والنقل، والربط أو العناصر التحويلية، ووحدات معجمية مثل: الكلمات الوظيفية والبنيويّة؛ فحسب هذا التصور فإن الكلام وفق هذه النظريّة هو أساس اللغة، أما البنية فهي قلب القدرة الكلامية، وتعليم اللغة يجب أن ينطلق أساسا من التدريب الشفوي على أبنيتها، تلك الأبنية التي يفتر أن تقدّم ضمن مواقف معدّة بعناية بحيث تسهم في اكتساب المتعلم القدرة على استخدام اللغة.

أول ما ظهرت هذه الطريقة أطلق عليها (أسلوب الجيش) لأنها استخدمت أول مرة في تعليم العسكريين الأمريكيين اللغات الأجنبية لإرسالهم في مهمات خارج بلادهم بعد الحرب العالمية الثانية، وقد قامت منهجية هذه الطريقة على اللسانيات الوصفية واستثمرتها في وضع منحى جديد لتعليم اللغات. وقد أجمل مولتون مبادئها الأساسية في خمس فرضيات نعرضها فيما يلي:

١. **اللغة هي الكلام المنطوق لا المكتوب:** فيتوقع من المتعلم أن يحصل مهارة المشافهة قبل أن يبدأ بقراءة المطبوع ولا بد أن يركز على الكلام المنطوق قبل المكتوب.

٢. **اللغة مجموعة من العادات:** اللغة كغيرها من العادات الاجتماعية،التي يكتسبها الفرد في ثقافة خاصة ،تكتسب وسط ثقافة اجتماعية معينة، وهذا المبدأ يعتمد على نظرية سكنر؛ المثير والاستجابة والتعزيز ويطبق هذا المبدأ بشكل خاص بالحفظ خصوصا الحوار. وبناء عليه كانت أساليب التدريس المتبعة تعتمد المحاكاة والتقليد وحفظ الأنماط اللغوية باعتماد التدريب المتواصل على استظهارها في محاولة لامتلاك ناصية البنية اللغوية واستدعائها عند الضرورة في مواقف مشابهة بطريقة آلية.

٣. **على المتعلم أن يعلم اللغة ذاتها، لا أن يعلم معلومات عن اللغة:** وهذا يعني أنه على المعلم أن يوجه جل اهتمامه داخل الفصل إلى تعويد الطلبة على استخدام الأنماط اللغوية المختلفة، على شكل جمل مفيدة وفي سياق حياتي،

لا أن يبدد الوقت في تقسيم الجملة إلى مبتدأ وخبر، أو تقسيم الأفعال إلى ماض وحاضر ومستقبل، أو تحويل الجمل من صيغة المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول، وغير ذلك من التمارين التي تدور حول اللغة، ولا تدرب الطلبة على استخدام اللغة ذاتها.

٤. اللغة هي ما تلك التي يستخدمها أصحابها، لا الأنماط اللغوية المعيارية التي يفرضها عليهم آخرون: وهنا يكمن الفرق الأساسي بين الطريقة السمعية الشفوية من جهة والطريقة التقليدية من جهة أخرى، ففي الطريقة السمعية الشفوية يتدرب الطلبة على أنماط لغوية يستخدمها الناطقون الأصليون باللغة فعلا، بغض النظر عما إذا كانت هذه الأنماط مقبولة أم غير مقبولة من دعاة تطهير اللغة من كل ما لم يرد في الكتب الأدبية. فالصيغ اللغوية الدارجة لابد من تعلمها تماما كما يجري تعلم الصيغ التي تستخدم في المستويات الأدبية.

٥. اللغات تختلف فيما بينها: وهذا المبدأ أيضا مفارق لوجهة النظر التقليدية التي ترى أن وصف اللغة اللاتينية وبناءها وصيغها، تنطبق على جميع اللغات. وانطلاقا من مبدأ التباين بين اللغات، ركزت هذه الطريقة على تعليم مواطن الاختلاف والفروق بينها خصوصا في مجالي الأصوات والتراكيب اللغوية واهتمت بتعليم التعابير الاصطلاحية الخاصة باللغة الهدف.

وتعد هذه الطريقة إحدى الطرائق التي تندرج تحت اسم "الطريقة البنيوية" إذ من الواضح أنه عند إعداد المادة التعليمية تدريجها بقصد تعليمها فإن الأساس في ذلك هو تقسيم اللغة إلى أنماط لغوية يجري تعلمها واحدا تلو الآخر ،في الوقت الذي يجري فيه إضافة كلمات جديدة بعد تعليم كل نمط لغوي، ثم يجري تقديم نمط لغوي جديد باستخدام الكلمات والمفردات التي جرى تعلمها.

سؤال: أين يكمن الاختلاف في تقديم المادة بين هذه الطريقة والطرائق التقليدية؟

٢_ أسباب وعوامل ظهور الطريقة

وقد ساعدت مجموعة من الأسباب والعوامل السياسية والعلمية في ظهور الطريقة السمعية الشفوية، يمكن إيجازها فيما يلي:

_ الحاجة إلى الاتصال الشفهي المباشر بين الأمم وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعدم الاعتماد على قراءة تراث الأمم وترجمته إلى اللغات القومية.

_ عجز الطرائق السابقة عن تحقيق المطالب الاتصالية بالمفاهيم الجديدة.

_ التطور في الدراسات اللغوي النفسية في منتصف القرن العشرين، الذي انتهى بالتزاوج أو التكامل بين النظرية البنيوية الوصفية في علم اللغة والنظرية الحسية السلوكية في علم النفس.

_ التطورات التي حدثت في تقنيات التعليم، وبخاصة في معامل اللغات وأدوات التسجيل المسموعة والمرئية، مما زاد في فاعلية أساليب التدريس في الجوانب السمعية الشفهية.

وقد حظيت هذه الطريقة بنجاح منقطع النظير ولاقت استحسان المدرسين والطلبة وأولياء الأمور والمربين، وانتشرت بسرعة في شتى أنحاء العالم حتى بلغت ذروتها في الستينات من القرن الماضي.

سؤال: من ناحية النظرية والمدخل، هل تستند الطريقة على نظرية أو مدخل؟ إذا كانت الإجابة نعم فما هو؟

٣_ وظائف كل من المعلم والمتعلم والمواد التعليمية

٣_١وظائف المعلم: تعد وظائف المعلم محدودة جدا، ومحكوم عليها بالمواد والكتب المقررة التي اختيرت موادها ورتبت وفق تدرج معين، لا يستطيع المعلم التصرف فيها بالحذف أو الزيادة، أو التقديم أو التأخير، بيد أنه سيد الموقف التنفيذي في حجرة الدراسة، فهو الذي يحضر للدرس ويقدمه للطلاب، ويرتب الأنشطة ويشرف على تنفيذها، ويقوّم أداء الطلاب وفقا لما رسم له في هذه الطريقة وحسب. وقد حددت هذه الطريقة للمعلم ثلاث وظائف رئيسة هي:

الأولى: تقديم النموذج الصحيح لطلابه من خلال النطق السليم والاستعمال الصحيح للغة.

الثاني: قيادة الطلاب وتنظيم أنشطتهم في حجرة الدراسة.

الثالث: مراقبة نطق الطلاب وتصحيح أخطائهم وتقويم أدائهم.

٣_٢ وظائف المتعلم: من الواضح أن المتعلم أضعف عنصر في العملية التعليمية وفقا لهذه الطريقة، إذ لا حول له ولا قوة، وما عليه سوى تنفيذ أوامر المعلم والقيام بحركات وأنشطة ربما لا يدرك أهدافها، بل ولا يجني ثمارها، مع ذلك لا يجوز له الخروج عنها، ولا تقديم المشورة لمعلمه المغلوب على أمره.

٣_٣ وظائف المواد التعليمية: تعتمد الطريقة السمعية الشفوية اعتمادا كليا على المواد التعليمية المقررة في المنهج، سواء أكانت مسموعة أم مكتوبة. وقد أشرنا إلى أن هذه المواد يتم اختيارها وفقا لقوانين وضوابط معينة، فالمفردات والعبارات والتراكيب وغيرها من عناصر اللغة، ينبغي أن تكون شائعة الاستعمال، ثم تقدم بتدرج من حيث درجات الشيوع والصعوبة والتعقيد.

سؤال: كيف يتم تقديم الدرس في حجرة القسم وفق الطريقة السمعية الشفوية؟

٤_ مزايا الطريقة

_ الاهتمام بالجانب الشفهي من اللغة، انطلاقا من نظرة هذه الطريقة لطبيعة اللغة ووظيفتها في الاتصال.

_ الاهتمام بثقافة اللغة الهدف بمفهومها الشامل، والحرص على تقديم نماذج منها في المواقف الحياتية العادية، من خلال تقديم الصور والأفلام والأشرطة السمعية.

_ تعلم اللغة الهدف من غير ترجمة إلى اللغة الأم أو الاستعانة بلغة وسيطة أمر جيد ومطلوب لأنه يدفع المتعلم نحو الجد والاعتماد على النفس.

_ التفكير باللغة الهدف هو الهدف الأسمى لهذه الطريقة، وهو هدف نبيل، وقد وضعت عدة وسائل لتحقيقه، كالحديث الشفوي والابتعاد عن الترجمة والاستعانة بتقنيات التعليم كالصورة والأفلام وأشرطة التسجيل.

_ تقديم قواعد اللغة بطريقة غير مباشرة أمر مطلوب، إذا أحسن اختيار الصيغ الصرفية والأبواب والوظائف النحوية، ولم يبالغ في التدريب عليها بأساليب آلية.

_ الترتيب الذي يتم به تدريس المهارات الأربع، استماع فكلام فقراءة فكتابة، ترتيب يتفق مع الطريقة التي يكتسب الطفل بها اللغة الأم.

_ حرص أصحاب هذه الطريقة على تثبيت العادات الحسنة واستبعاد العادات السيئة، من خلال التعزيز الإيجابي للإجابات الصحيحة وإغفال الخاطئة منها.

_ التدرج في تقديم المواد والعناصر اللغوية، يعد خطوة جيدة ما لم يتحول إلى تكلف وتصنع.

_ التأكيد على أهمية التدريبات في استيعاب اللغة وتثبيت الكثير من المهارات، فضلا عن أن تنوعها يزيل ما يعتري المتعلمين من ملل، وبخاصة التدريبات غير الآلية.

_ بعض أنشطة هذه الطريقة تعوّد المتعلم على الاستماع الجيد وسلامة النطق وقد تشجعه على الانطلاق في ممارسة اللغة.

_ قد تساعد الطريقة على إشباع حاجات المتعلمين النفسية، وتقوي دوافعهم إلى استعمال اللغة الهدف، إذ يستطيع المتعلم في وقت قصير أن يعرف نفسه بالآخرين، ويتعرف عليهم، ويجيب عن أسئلتهم، إذا أحسن اختيار المواقف التعليمية التي تمثل واقع اللغة الهدف، مما يؤدي إلى ثقة الدارس بنفسه.

_معظم أهداف هذه الطريقة وأنشطتها مفهومة لدى المعلمين، مما يسهل عليهم تنفيذ خطواتها وأنشطتها وتقويم أداء الطلاب.

٥_ العيوب الطريقة

١. التأكيد على الجانب السمعي الشفوي الذي قامت عليه هذه الطريقة ليس جديدا في الميدان، فقد نادت به أكثر من طريقة من الطرائق السابقة ولم تفلح ولا واحدة منها في الصول إلى الهدف.

٢. الفصل التام بين مهارات اللغة، كما هو الحال في هذه الطريقة، غالبا ما يضيع الفرص على بعض الطلاب، وبخاصة الطلاب المهتمون بالقراءة والكتابة لأغراض دينية أو أكاديمية.

٣. تخصيص فترة طويلة من البرنامج للاستماع فقط، وتأخير القراءة والكتابة قد يؤثر سلبا على فهم الطلاب لما يسمعون...

٤. اعتماد هذه الطريقة على نتائج التحليل التقابلي في إعداد الخطط والمناهج، واختيار المواد التعليمية وتقديمها، وتنفيذ الأنشطة والإجراءات قلل من أهميتها.

٥. معظم الأنشطة في هذه الطريقة غير واضحة الهدف لدى كثير من الطلاب، كما أن معظمها أنشطة صفية محدودة داخل حجرة الدرس، ومرتبطة بطريقة معينة، كما أنها مفروضة على المتعلمين، ما يؤدي إلى عدم الاستفادة منها في الاستعمال اللغوي.

٦. يتطلب التدريس بهذه الطريقة معلمين ذوي كفاية عالية في اللغة الهدف، وربما لا يصل إلى هذه الكفاية سوى الناطقين باللغة.

٧. تلقي هذه الطريقة العبء الأكبر على المعلم، لكثرة أنشطتها وتدريباتها، ولو أراد المعلم القيام بجميع الأعباء الموكلة إليه كما هو مقرر في هذه الطريقة فلن يستمر طويلا في مهنته.

٩. استبعاد الترجمة، أو الاستعانة بأي لغة وسيطة في حجرة الدرس، يتطلب من المعلم جهدا شاقا في الشرح ومهارة عالية في التمثيل والرسم، وقد يضيع وقت المحاضرة في شرح كلمات معدودات.

١٠. نظرا لاهتمام هذه الطريقة بتقديم الأنماط الثقافية من خلال المواقف العادية لمجتمع اللغة الهدف، فإنها لم تستطع تقديم الثقافة بصورة لائقة كما يريدها الناطقون باللغة الهدف.

٦_ ختـــــامـــــــا

كما سابقا أن هذه الطريقة قد سيطرت على ميدان تعليم اللغات الأجنبية فترة طويلة، امتدت إلى العقد السابع من القرن العشرين، وقد لاقت خلال هذه الفترة رواجا منقطع النظير وقبولا لدى المتعلمين الذين لم يجدوا مشكلة في فهم فلسفتها وأهدافها، ولم يواجهوا صعوبات في تنفيذ خطواتها وأنشطتها، وقد بلغ الإعجاب بها ذروته في نهاية الستينات من القرن العشرين، حتى أطلق عليها الطريقة العلمية لتعليم اللغات. لكن ومما هو معروف لدى الطالب ظهور اتجاهات وآراء معرفية عقلانية في نهاية الخمسينات تنادي بمنهج جديد لدراسة اللغة وتفسير السلوك اللغوي لدى الإنسان، ما لبثت أن انتقلت تلك الآراء إلى ميدان تعليم اللغات الأجنبية، ما جعل الشك يدب إلى الطريقة السمعية الشفوية، وفي نهاية السبعينات من القرن العشرين ظهرت للعيان جملة من عيوب الطريقة السمعية الشفوية، واقتنع الجميع بعدم جدواها، فبدأت تختفي من الميدان في تعليم اللغات الأجنبية في الدول الغربية.